سورة الأنبياء

obeikandl.com

﴿ سورة الأنبياء ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾

إنذار لأهل الحجب والمعاصى بما يوجب تنبيههم من رقدتهم وسباتهم، والعارفون فى يقظة تامة غير محتاجين لمن ينبههم وفى ذلك يقول شاعر القوم.

ألا إن الوجود بلا محال خيال فى خيال فى خيال

ولا يقظان إلا أهل حق مع الرحمن هم فى كل حال

والعارف لا يهدد ـ مثلهم ـ بتلويح اقتراب الحساب له، ذلك لكونه خارج الحساب، فالذرة من عمل العارف بأطنان من أعمال غيرهم من أهل الحجاب، ولذلك قال نبينا ﷺ ((**يدخل سبعون الفا من أمتى الجنة بغير حساب**)).

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

وهكذا صفة العارف المتحقق والمتخلق بصفات مولاه عزوجل، ليس عنده وقت ينفقه ويضيعه فى اللعب واللهو بل كل وقته جد.

ثم أعلم الحق سبحانه العارف المتخلق بهذه الصفة أن ذلك لن يضيع ـ أى صفة اللهو واللعب ـ إلا بانقذاف الحق على الباطل

فيدمغه فإذا هو زاهق، فأمره أن لا يترك فى حياته باطلاً أو صفة ظلمانية تعكر صفو ذاته إلا ويجب عليه أن يدفعها عن نفسه ويمحوها بسيف المجاهدات والخلوات والأذكار وصحبة الأخيار من عباد الله.

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

والملائكة الذين هم عنده قد سخرتهم الصنعة الإلهية فى هذا الشأن، فهم قائمون فى عبادته سبحانه بلا انقطاع ولا فتور ولا توان.

أقول: ومن عصى ربه ثم تاب هو أفضل منهم ــ أى الملائكة ــ إذا ذكر ربه ولو بقليل، ذلك لكون الصنعة الإلهية لم تسخره فى هذا الشأن ــ ليلاً ونهاراً ــ وإنما ذكر ربه برغم كل ما فيه من علل وآلام ، ومن المعلوم أن الملك يخلو من تلك العلل والآلام، ولا يوجد فيه ما يشغله عن ذكر ربه عز وجل ويعطله، وعن هذه الصفة التفضيلية قال الحق سبحانه على لسان الملائكة: ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

لا يسبقونه بالقول لجهلهم بالأوامر الإلهية وغموضها، فلا علم لهم بها، فهم منتظرون لما يصدر عن حضرة الحق عز وجل من أوامر جديدة، فكيف يسبقون لما هم به جاهلون ؟

فهم خلقوا للعمل بأوامر الحق عز وجل، فهم عبيد الحضرة، قد خرسوا من سطوة الصمت بين يديه، وقد أذابهم انتظار الأمر الإلهى،

فلا يستطيعون له مناقشة ولا نقضاً سوى تنفيذه.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴿٣٠﴾ ﴾

أى كانتا قطعة واحدة، فانفصلا عن بعضهما البعض، وشبه الحق عز وجل الأمر بقطعة القماش الواحدة المخيطة، ثم تفتق لتصبح قطعتين، وهو تشبيه بديع دال على أن أصل المادة واحد لا غير، فالكل كان واحداً، وعن الوحدة نشأت الكثرة وهذا ما أقره العلم الحديث، وكذلك ما أقره كشف السادة العارفين.

واعلم أن أصل المادة الكونية مجهول لحد الآن، فلا تعرف حقيقة المادة لدى علماء الطبيعة، أو عند المكاشفين بأسرار الكون من كبار العارفين.

فإن المادة متنقلة لا يعرف بدايتها من نهايتها، ولا من الذى اشتق من ممن ؟

وقد شبه ذلك بالبقرة التى تموت فتدفن فى التراب، فيتغذى النبات على تراب البقرة ثم يأكل ابن آدم ذلك النبات ثم يموت ابن آدم ويدفن ويتغذى عليه النبات.... الخ.

وهكذا يدور الكون فى دورة متنقلة، لا يعرف مادة من سرت فى من ؟

ولا يعرف من اختلط بمن ؟

وهكذا فإن المادة الكونية كلها سارية فى بعضها البعض متنقلة السريان، لا يعرف لها عين، ولا أول من آخر، ولنا رسالة تفصيلية فى هذا الشأن اسمها الناموس الأعظم وهى مطبوعة.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ومن تحقق فى حقيقة الماء علم أنه الله لا غير، فإنه كان الحامل للعرش الإلهى بنص القرآن، وهو قوله سبحانه: " وكان عرشه على الماء" فلم يستطيع شئ حمل العرش سوى الماء، ومن المعلوم أنه لا يوجد خلق أعظم من العرش، فإن الكون بالنسبة للكرسى كالحلقة الملقاة فى فلاة، والكرسى بالنسبة إلى العرش كالحلقة الملقاة فى فلاة.

وفى الحقيقة أن العرش لا يحمل الله، بل الحق هو الحامل له، قد قام سبحانه بكل مخلوق، ولا يقوم سبحانه به شئ مهما كان عظمته، فإنه سبحانه لو حمله شئ أو قام به شئ لفسدت الربوبية وانهارت، سبحانه وتعالى عما يشركون.

وإذا رجعنا إلى خطر الماء وعظيم قدره، رأينا الحق سبحانه يقول إنه قد خلق منه كل شئ حى، وينسب إليه الحياة، والحياة لا تنسب إلا لحى فافهم معنا كلامنا.

ومن العجائب المائية أنه متعادل الطعم، فليس فيه الحلاوة أو الملوحة أو المرارة، ومتى دخلت فيه نسب الأشياء الحلوة أو المالحة لا يكون حينئذ ماء بل شيئاً آخريحتوى على نسب تغلب عليه، وحينئذ لا يروى العطشان، ثم لا يكون هناك حياة بدونه سبحانه وتعالى عما يشركون.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴿٣٥﴾ ﴾

لكى تصل إلى أعتاب الربوبية، وتتقابل معها وتلتقى بها، فلابد لتلك النفس أن تموت سواء كافرة أو مؤمنة، شقية أم سعيدة.

والموت أنواع:

منهم من يميت نفسه بيده كالسادة العارفين بربهم، دأبوا على ما أمرهم به الحق سبحانه وسماه جهاداً أكبر، وأمرهم ــ وأمره فرض عين عليهم ــ أن يعملوا به .

فكل همهم قتل النفس فيهم ومحاربة الهوى .

ومنهم: من ينسى نفسه، فلا يعبأ بمحاربة هواه ونفسه، بل يسعى فى تنفيذ كل ما أحبته وطاعتها فى ذلك، وإنالتها كل ما تحبه وتشتاقه، وهؤلاء هم ما عدا السادة العارفين.

وقد وصف الحق هؤلاء بأنهم كالأنعام بل هم أضل لإطلاق العنان لأنفسهم وعدم تربيتها وتهذيبها .

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ ﴿٣٧﴾﴾

ما عدا السادة العارفين، فإنهم نظروا فى حكمة الكون فطردوا الاستعجال بخلاف من غيرهم الخالعين للتمعن فى الكون بمنظار الحكمة الإلهية.

واعلم أنه ما أطلق الحق سبحانه على الإنسان بأنه عجول إلا لكونه نظر فى الأكوان بمنظار لا ينطبق مع حكمته، التى وضعها فى الأكوان، ولما نظر الحكماء من السادة العارفين بعين الحكمة الإلهية، لم يصح أن يطلق عليهم بأنهم غير حكماء .

ومثال ذلك أن موسى نظر فى الثلاث مسائل بعين غير التى نظر بها الخضر، فالأول لم ينظر بعين الحكمة الإلهية الموجبة لحقيقة تلك القضايا،بينما نظر الخضر لتلك المسائل الثلاث بعين الإرادة الإلهية التى أوجبت حكمة الحق سبحانه فى الأعيان:فأطلق عليه أنه حكيم، قد نظر حقاً بعين الحكمة،وأعطى الأعيان قدرها فى النظر إليها بعين

الحكمة الإلهية.

﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾

من ظهور تلك الحكمة، بل اتركوا وقت ظهورها لي ، ولا تفرضوا ظهور تلك الحكمة فى وقت معين.

فإنه سبحانه هو المظهر لحكمته فى أكوانه فى الوقت المحدد لذلك الظهور، فقد كان أجدر وقت تظهر فيه الكهرباء والمخترعات هو وقت ظهوره ﷺ هو وأصحابه، فإنه ﷺ هو أحق الناس بظهور تلك المخترعات لكى يتمتع هو وصحابته بها.

أقول: هذه وجهة نظر المحجوب، الذى لم ينظر فى الكون بعين الحكمة الإلهية، فإنه سبحانه أراد شيئاً آخر، لا نعرفه نحن من عدم ظهور تلك المخترعات فى عصره ﷺ وتمتعه بها هو وصحابته.

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

إشارة إلى تناقص النفس الأمارة عند العارف من أطرافها وحلول الكمال فيها.

﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

فلا تستطيع أدق الأجهزة وأحدثها مضاهاة الحساب الإلهى، فهل تستطيع هذه الأجهزة حساب كل ذرات الرمال التى على ظهر الأرض وإحصاء عدد أوراق الشجر وعدد شعر المخلوقات.

هذا بغض النظر عما اختفى عن الحسن من أحجام الأعيان، فلا

حسيب مثله سبحانه وتعالى .

ويأتى وقت على الآلة الحسية وتعجز عن الحساب المطلق فافهم

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

أى أمددناه بالمعلومات المثبتة له، وقويناه بحجج البراهين الإلهية، والأدلة الربانية التى تلقى على ألسنة الأنبياء والعارفين فينطقون بها.

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وهذا لأهل اليقين فمن عظم يقينه، قلب له الحق سبحانه عين الخطر إلى عين الأمان .

﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

أى جعلناهم أئمة فى دولة الباطن، قد أقامهم الحق سبحانه مصابيح الدجى، بهم ينبت الله الزرع، وينزل الغيث، ويحى الأرض بعد موتها، قد ضاهى بهم الله الملأ الأعلى، وباهى بهم ملائكته .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

مغاضباً من الدلال ، لما غرق فى محبة ذى الجلال والجمال والكمال، فظن أن لن نقدر على إرجاعه إلينا من ذلك الدلال، فنادانا بأعذب الألحان وتضرع إلى حضرتنا بأرق الأشجان، لما ذكرناه بنا

فحبسناه فى ذلك الظلام.

واعلم أيدنى الله وإياك بروح القدس أن سر إرجاع ذلك المحب ذى النون إلى الحضرة الإلهية بالحبس فى الظلمات، فاعلم أن الحكمة من ذلك هو مراده سبحانه أن يقول لذى النون بلسان الباطن أن تركك لى لن يسبب لك سوى الظلام الباطنى، وذلك لكون البعد حجاب، والقرب تمكن ووصال، وفيه زيادة لنورانية المواصل فافهم.

وقد عبر الباطن عن ذلك بالحبس فى الظلام الحسى فى بطن الحوت، وإن كان المعنى الباطنى المقصود بخلاف المعنى الظاهرى فافهم.

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

هرب هذا القطب من الفردانية وأراد أن يتحقق بالكثرة، لكون الكثرة مراد الحق سبحانه من الأعيان، فإنه سبحانه هو الفرد المطلق، لما علم سبحانه من أنه لن يعرفه أحد سواه، تشعبت منه الكثرة، فخلق الخلق لكى يعرف، ولولا خلقه لما عرف.

فأراد هذا السيد زكريا أن يتحقق فى الكون بمراد الله عز وجل، لكى يكون عبداً ربانياً محققاً لمراد الحق عز وجل فيه.

إذا أن القطب النائب عن الله هو خير من يتحقق بصفات الحق عز وجل وأسمائه فى مملكته.

ولما أراد أن يخرج هذا القطب الوارث عن فردانيته إلى كثرته، تحقق من أن الفردانية غير باقية فى مرادات الحق سبحانه، إذ هى متحولة إلى الكثرة، فعلم أن ذلك من باب الإراثة الإلهية، فتبرأ من

فردانيته وهرب إلى كثرته فخاطب ربه بأنه خير الوارثين.

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١ ﴾

والحقيقة أن الكل منفوخ فيه، وليس الصديقة مريم فقط هى الوحيدة التى نالت هذا الشرف.

فإن حقيقة النطفة أنها لا حراك لها بدون الروح الإلهى، الذى يحيه ويحركه ويجريه فى أطواره المختلفة.

وقد أثبت المنظار فى علم الطب الحديث ذلك، وأثبت حركة الجنين فى الأطوار المختلفة فى داخل ارحم.

فالصديقة مريم ليست مميزة عن باقى البشر، وإنما التميز الوحيد هو أن الحق عز وجل ميزها بأن جعل النافخ فيها هو جبريل، وهو بخلاف الملك العادى الذى ينفخ الروح فى النطفة فى أرحام كل الأمهات، سواء الأمهات المؤمنات أو الكافرات.

فأهل الحق العارفون بالله عز وجل لما تحققوا من حقيقة احتياج الوجود إلى التحريك الإلهى له، تحققوا أن هذا النفخ داخل وشامل فى كل ذرات الوجود، وفى كل أطواره، وفى كل أزمانه، إذ لاغنى للأعيان عن التحريك الإلهى، وإلا لسكن الكون وركد يقول سبحانه: ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ فسبحانه هو المحرك الأصلى للكون، وهو الذى أعطاه هذا النفس لكى يتحرك به، ويتنقل به فى جميع أطوار المختلفة.

فالروح الإلهى سارٍ فى كل ذرات الكون، لا فى مريم فقط ولا المسيح فقط.

فالكل أبناء الله، لا المسيح فقط هو الابن الوحيد، وصدق الحديث النبوى الشريف القائل:" الخلق عيال الله "

فهؤلاء العيال لا يحركهم سوى أبيهم وهو الحق عز وجل.

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

أى أنتم مادة الوقود الجهنمية، التى توقد بها النار، وذلك لحقارة طينتكم وخستها، وسقوطكم من نظر الله عز وجل.

فلو كانت تلك الطينة فيها متقال ذرة من الخير لأبعدها الحق عز وجل عن الوقود الجهنمى، ولكن لما كانت تحتوى على الشر التام، وانقطاع الاستعداد الكلى فيها لعمل الخير، رجعت إلى أمها سقر، يقول سبحانه عن ذلك: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

وإنما عبر ههنا عن الطينة بالأم، لكون تلك الطينة التى هى أمهم تنقلب عليهم ناراً، ويصبحون هم وقودها.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

لخلوهم من رزالة الطينة وحقارتها وانحطاطها، ولنقاء ذواتهم من الظلام الموصل إلى جهنم.

وبهذا سبقوا الخلق وسبقت لهم الحسنى، فأبعدوا عن الظلام الجهنمى وعن الصفة الجهنمية، التى لا يدخلها إلا من انحطت ذاته وسفلت طينته.

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وإنما هو الفزع من الصفات الذميمة والأوصاف الظلمانية، فيحمى الخير صاحبه يوم القيامة من التعرض لذلك الفزع الأكبر، فتتلقى الملائكة من خلا من العلل بالتهنئة والسلامة على خلوه من تلك العلل فيقال لهم: هذا يومكم لا يوم غيركم.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أى نطوى الحياة الكونية، وننهى العالم لظهور القيامة، ولأجل إقامة الميزان الحقانى بين الأعيان، فيقتص المظلوم من الظالم.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

حدثت لنا كرامة فى هذه الآية مع أحد الأولياء الذين كنت أشاهدهم وأنا طالب، وهو يركب دراجة عادية غير بخارية، وهو يتلو القرآن، ويقطع بهذه الدراجة العادية الغير بخارية مسافات طويلة، وهو يسير بها ويتلو القرآن، وكنت أتمنى أن أكلمه، وذات يوم كنت فى أحد الميادين العامة فرأيته يكنس الميدان، وهو يتلو القرآن وقد نزل من على دراجته، فأردت محادثته فخاطبنى من بعيد قبل أن أكلمه فقال لي: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ

ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾، فعلمت أن الخطاب موجه لي، فتركته ومضيت، ﷺ.

وإنما عبر الحق ههنا عن الإراثة الباطنية، التي استعدت لتلقيها ذوات أحبابه من الأولياء، منذ ألست بربكم.

obeikandl.com